

لماذا تفلسف الإنسان ؟

للدكتور محمد البهي

—>>><<<—

كانت كلها معارف إلهية ، أى كانت منسوبة إلى الآلهة ، وكانت طائفة بالذات هى طائفة رجال الدين أو من تسمى بالكهنة تقوم بشأنها وتمهدها بالحفظ والتناقل والشرح . وما عدا هذه الطائفة من طوائف أخرى كانت تقف من هذه المعارف موقف القابل المطيع الذى لا يسمح له بمعارضة أى نوع منها ولو معارضة نفسية داخلية ، فضلا عن معارضتها بالتنفيذ عن طريق الحججة أمام آخرين ، فبهذه المعارف لها قداستها من الجميع ، وقداستها تمنع نقدها ونحتم قبولها .

والإنسانية فى جماعات مختلفة وفى أجيال متعددة قبلت المعارف الدينية ، وقبولها يتضمن تقديسها وعدم نقدها ، وتقديسها وعدم نقدها ينسحب إلى تقديس من يقوم بأمرها وعدم معارضته . وما عرف للإنسان من عمل فيها كان عبارة عن شرحا شرحا عقليا يساعد على رواجها لدى أصحاب القلق النفسى من التابعين للدين . وبهذا كان عقل الإنسان فى خدمة التعاليم الدينية ولتأييد قداستها وقداسة القائمين بأمرها . وقد نستعمل فندعى أن خدمة الإنسان لهذه التعاليم عن طريق عمله العقلى لم يكن لمهد وجودها

يعتبر مؤرخو الفلسفة القرن السادس قبل الميلاد بداية التفلسف الإنسانى . والفلسفة إذا قيل فى شأنها إنها محبة الحكمة ، والتفلسف إذا عبر عنه بأنه البحث عن الحكمة ، فمن غير شك أيضا أن الفلسفة فى أول عهدها مجموع المعارف التى حررها الإنسان أو استخلصها من المعارف السابقة على عهدها ، وأن التفلسف فى بداية عهده أيضا نظر الإنسان فى هذه المعارف السابقة لاختيار ما يصلح منها فى رأيه للبقاء . فالفلسفة هى معارف مختارة ، والتفلسف هو إعمال الروية فى تصفية المعارف التى كانت متداولة فى الجماعة الإنسانية إلى حين التفلسف فى القرن السادس قبل الميلاد .

والتفلسف إذا كان تصفية واختيارا يفرض طبعاً وجود مجموعة من المعارف متداولة يضنها محلاً للتصفية والاختيار . وقبل عهد التفلسف كانت هناك معارف متداولة فى الجماعة الإنسانية ، ولكنها

ومثل هذا الاستعمال فى مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٥ وج ٣ ص ٥٨ .

وفى تاريخ الطبرى ج ١١ ص ٢١٢ .

ومثله فى (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ج ١ ص ٢١٦ وج ٢ ص ١٤١ وج ٤ ص ٢١٥ وج ١٦ ص ٢١٩ وج ١٧ ص ٢٣١ وج ١٨ ص ٨١ .

ومثله فى (معاهد التنصيص) ج ١ ص ١٠٢ وج ٢ ص ١١٦ و ١٨٢ وفى (كليات أبى البقاء) ص ٣٦٠ .

ذلكم ما جاء فى مصنفات القوم ، وقد نزل النيف فى أقوالهم حيث نزل . وإنا نستبعد تبديل ناسخين فيها . فإلى الذى حلهم على تقديم الزيادة على المزيد عليه ؟

هل قاسوا النيف على البضع فى بعض حالاته فقالوه ، أو استخفوا هذا التركيب فمشوه . وهل عليهم فيما أتوه من حرج ؟ وهل تؤخر نحن مشبه العرب فى هذا الزمان أو تقدم ... ؟

محمد إسعاف النسائي

من فرسان الهلب على فرض له أدم وبه نيف وعشرون جراحة ، وقد وضع عليها القطن ، فلما حل يزيد ولّى الجمع ، وحامهم فارسان ، فقال يزيد لقيس الخشنى : من لهدين ؟ قال : أنا . فعمل عليهما ، فمطف عليه أحدهما ، فطعنه قيس الخشنى فصرعه ، وحمل عليه الآخر فماتته ، فمقطا جميعاً إلى الأرض ، فصاح قيس الخشنى : اقتلونا جميعاً . فحملت خيل هؤلاء وخيل هؤلاء فجزوا بينهما ، فإذا معانقه امرأة ، فقام قيس مستحيماً ، فقال له يزيد : أما أنت فبارزتها على أنها رجل ، فقالت : أرايت لو قتلت ، أما كان يقال قتلته امرأة .

ولم يناقض العلامة الرصنى فى (رغبة الآمل) صاحب (الكامل) فى موضع من المواضع الأربعة فى حين أنه نبه على أشياء غير قليلة فى كتابه .

والحريرى الذى اعتاد تحطئة الصواب فى (درة) لم يغلط إلا من خفف النيف .

وقال أبو بكر الخوارزمى فى إحدى رسائله (ص ١٣٢ مطبعة الجوائب) : فى نيف وسبعين من جملة شعبة .

من التجريح ومن رميها باتباع الهوى والفرس في التفسير . ثم نسبها إلى مقدس هو الدين يزيد في حمايتها وفي إساءة الأغراض الخاصة عنها .

وفي طبع الإنسان إذا شعر بالتميز أن يطعم في أن تسع دائرته حتى ليود أن يصبح طبيعة أخرى منارة لطبيعة الإنسان ولكنها أرقى منها . ورجال الدين أو طائفة الكهنة كانت متميزة لأنها اختصت بمعرفة الدين وشرحه والقيام عليه ، وطمعت أيضا في أن يزداد تميزها . وقد زاد حتى عدت في بعض اليهود أبناء للآلهة أو من سلالتها كما اعتبرت بعض الطبقات الأخرى عبيدا لها .

وانقسمت الجماعة الانسانية عندئذ إلى قسمين متقابلين : قسم شريف هو طائفة الكهنة ، وقسم آخر خسيس هو العزل والأكره وإذا تميز الإنسان أو ادعى تميزه إلى حد أن يعتبر طبيعته منارة لطبيعة من دونه ، وفي الوقت نفسه يتولى هو أمر هذا الذي دونه ، فتولى للأمر يصدر فيه عن الشعور بالمفارقة . والكهنة كذلك جعلوا الناس مختلفين ، ووضعهم أمام آلهتهم مواضع مختلفة وجعلوا تكاليفهم ورسومهم في العبادة مختلفة أيضا .

وهكذا آل الدين الذي شأنه أن يسوى بين الناس في الطبيعة ويجعل تفاوتهم في بدمهم أو قربهم من مثله الأعلى ، إلى أن يكون عاملا في التفريق بين طبائهم . وهكذا آل أمر رجال الدين إلى أن يكونوا طبقة متميزة ، وآل توجيههم إلى أن يكون إماماء للمحافظة على تميزهم أو للمحافظة على بقاء دولتهم . وبالتالي أصبح الدين صناعة محتكرة ، وأصبحت المعرفة السيطر على الجماعة الإنسانية لا لإرشاد الإنسان إلى سعادته ، بل لإسماد طائفة معينة .

هذا المصير الذي سارت إليه المعرفة الدينية ، وسار إليه رجال الدين فيما قبل القرن السادس قبل الميلاد ، وسارت إليه الجماعة الإنسانية ، حل بعض الناس على أن يشور ، وعلى أن يسلك طريق الفكر في ثورته للرد والإقناع . ولم تكن ثورته الفكرية حبا في معالجة الجدل ، بل لوضع حد لامتياز الإنسان ، ورد اعتبار الإنسان ، وتخليص الإنسان من الإنسان ، وإسماد كل فرد من الإنسان لا طائفة معينة بالذات . وتوجه هذا البعض إلى تعاليم

ونشأتها فحسب ، بل استمرت أيضا في مراحل تطورها . والإنسان بقله كما أيدها في صفاتها أيدها أيضا وقد دخلها صنعة الدين . وربما كان معظم طائفة الكهنة وتميزها عن بقية الطوائف في الأمم الشرقية القديمة من عمل الإنسان المؤيد أو من نتائج تأييده لتلك التعاليم عن طريق عمله العقلي ، ولم يكن بوحى أصل من أصول أديان تلك الأمم .

وقبل التفلسف الإنساني أو قبل التفلسف الإغريقي في القرن السادس قبل الميلاد كانت تسيطر إذاً على معارف الجماعة الإنسانية عدة مظاهر :

- ١ - كانت المعارف الدينية وحدها هي التي تقود الإنسان .
- ٢ - وكانت طاعة الإنسان لهذه المعارف ناشئة عن تقديسه لها واعتقاده بصحتها .
- ٣ - وكان القائم بأمر هذه المعارف ، سواء بتعليمها وتلقيها أو بشرحها وتحديد مدلولات عباراتها ، طائفة معينة هي طائفة الكهنة .

٤ - وعمل الإنسان العقلي كان مرتبطا بأصول هذه التعاليم وفي خدمتها ولغايتها تمكينها من النفوس الحائرة .

وإذا كان القائم بأمر التوجيه في الجماعة الإنسانية طائفة معينة ، وإذا كانت في توجيهها تصدر عن إرادة الله ومن تعاليم وسيط في الكون وهو الرسول ، وإذا كان غيرها من الطوائف في الجماعة عليه أن يخضع ويطيع فحسب ، فليس هناك من ضمان في أن يبقى توجيه الطائفة المعينة في دائرة التعاليم الأولى للدين . وليس هناك من ضمان أيضا في أن يكون شرحها لهذه التعاليم في حدود الناية التي يبغها صاحب الرسالة ، بل يجوز أن تحمل هي من الدين سرا تختص بملحه دون بقية التابعين وهو غير ماعرض على هؤلاء التابعين ، ويجوز أن تشرح ماعرف هؤلاء باسم الدين بما تراه هي لا بما يهدف إليه الدين نفسه . وإذا جعلت من الدين سرا خاصا بها فليست هناك لأحد استطاعة في أن يراقبها فيه ، وإذا فسرت ماعرفه الناس من تعاليم الدين بما تراه هي فاستناد التوجيه إليها خاصة وقيامها وحدها دون سواها بأمر هذه التعاليم يحممها

وعلى المؤلف من المعارف المسيطرة على الجماعة الإنسانية عدّ الفيلسوف مناوئاً لرجل الدين وعدت الفلسفة عدوة للدين . وبمقدار ما في القضية الأولى من صدق بمقدار ما في الثانية من مبالغة . إذا الأديان في طبيعتها تنظر إلى أفراد الإنسان نظرة مساواة وتهدف إلى إسعادهم جميعاً ، وكذلك الشأن في الفلسفة ، فقط طريق أحدهما قد يختلف عن طريق الآخر .

وكما لم تستطع الفلسفة أن تلتى الأديان كذلك هذه لم تستطع إلغاء الفلسفة ، بل الفلسفة إن لم تنته إلى ما ينتهي إليه الدين ، تعترف بحيز له لا تستطيع السير فيه إذا اقتضته ، والدين في وضعه الأصلي إذا لم يشجع التفكير الإنساني في دائرة ما رسمه له يدع له مجالاً خاصاً به ، لا يبدى — إذا أبدى — رأياً في ناحية من نواحيه إلا عن طريق الإجمال .

وما بين الفلاسفة ورجال الدين ، فلاجل توجيه الإنسان . فالفلاسفة يرون أن رجال الدين لما لتعاليم الدين الذي ينسبون إليه من قداسة ، ولما لهم هم أنفسهم من طبيعة إنسانية تميل إلى الجاه والسلطان ، قد يكون لهم خطر على الإنسان في قيادتهم له إن احتكروا الدين وجعلوا فيه وفقاً عليهم وحدهم . فلكي لا يقع هذا الخطر يذكر الفلاسفة بتفلسفهم الإنسان بقيمته واعتبار وجوده ، حتى لا يكون انجذابه إلى تعاليم رجل الدين عن غير روية واختيار . ورجال الدين لأنهم يرون في الفلاسفة منكرين لأفهامهم الدينية ومفرقين بين الدين وتعاليمهم ، وعرضين الإنسان على عدم الانقياد لهم في يسر وسهولة يقررون بعد الفلاسفة عن التوجيه الصحيح للإنسان وبصورتهم منحرفين عن الدين .

وإذا كانت الفلسفة في بدايتها تكونت من المعارف الدينية ، فالفلاسفة في العصور المختلفة إلى عصرنا الحاضر نشئوا تنشئة دينية وكانوا من رجال الدين قبل أن يصيروا من رجال الفكر ، وإن اختلفت بدايتهم عما ساروا إليه ، فليس لأنهم أنكروا الدين ، بل لأنهم خالفوا رجال الدين في تصوراتهم للدين وعرضهم له .

وإذا كان تفلسف الإنسان في أول الأمر لرفع طغيان الإنسان باسم الدين ، فلم تزل حرية التفكير التي هي أساس التفلسف وسيلة الإنسان السلمية لكبح اعتداء الإنسان باسم أى شيء آخر .

محمد البرهسي

الكهنة لا يقرها ويقلها كما كان الشأن بالنسبة إليها بل لينقدها . ومما يرقده لبس السماع والرواية ، وليس الإذعان للعصمة والقداسة ، بل عقله ومنطقه .

وأطلق على هذه الثورة الفكرية تفلسفاً . والنفر الذي رفع علم هذه الثورة كان من الإغريق . والشرق إذا كان فكر قبل هذا ، وأنتج في محصول الفكر البشري ، فقد كان على نحو ما بينا في دائرة الدين ولخدمة المعارف الدينية . والإصلاحات التي قامت في الشرق لرفع مستوى الإنسان ورد اعتباره وإزالة الفوارق الطائفية كانت إصلاحات دينية كاثروادشيتية والنيوذية . فالأولى كانت تعديلاً دينياً أو إصلاحاً دينياً للديانة الشعبية الآرية التي قامت على عبادة النار والطبيعة المحسوسة ، والثانية كانت تعديلاً للبراهمية التي حولت الجماعة الهندية إلى طبقات متفاوتة في الطبيعة .

وبنشأة التفلسف تكونت الفلسفة ، وأصبح في الجماعة الإنسانية نوعان من المعرفة : المعرفة الدينية ، والمعرفة الفلسفية أو الإنسانية . وإذا كانت الأولى يدعى فيها العصمة ، فالثانية للإنسان أن يصوّب أو يخطئ فيها . وإذا كانت مبادئ الأولى محدودة لأنها وقف على الوحي ، فالثانية قابلة للزيادة والنماء لأنها في متناول كل الأجيال الإنسانية . وإذا كان رجال الدين هم المحافظون في كل أمة بحكم موقفهم من عدم التصرف في معارف الدين ، فالفلاسفة هم رجال الثورة الفكرية وأصحاب التطور في توجيه الإنسان . وإذا كان رجال الدين يضمنون من قيمة الإنسان واعتباره ، وقد يلتفتون أثره في الحياة ، ويردون كل أثر فيها إلى الله ، لتضاعف بذلك عظمة الإله ، فالفلاسفة يشيدون بالإنسان وينسبون إليه أثراً ويسندون إليه فعلاً في تغيير الحياة نفسها .

والفيلسوف وإن كان رجل ثورة على التعاليم الدينية ، فتورته في الواقع على التعاليم التي كونها الإنسان باسم الدين ، والتي ربما قلب بها أوضاع الدين وحرف بها هدفه . والفيلسوف وإن رى بالإلحاد فرميه به عادة من رجال الدين ، وليس بلازم أن يكون منكرًا للدين وإن أنكر تعاليم رجاله . ولكنه مع عدم إنكاره الدين لا يبلغ لمغ رجل الدين في إلغاء وجود الإنسان بنية إظهار عظمة الله .

ولأن التفلسف في بدايته كان خروجاً على تعاليم رجال الدين